أخبار الملاح

تمهيد

أيها القارئ

قد رأيت كيف كان عمر ابن أبي ربيعة يحب ، وكيف كان يسلك مذاهب النسيب ، فانظر الآن كيف كان يتصيد النساء ، وكيف كانت تعيش معشوقاته فى ذلك الزمان

وإنى لأرى من الخير أن أبيّن لك قبل كل شيء ، كيف فكرت فى كتابة هذه الفصول ، فقد أخشى أن ترمينى بالاسراف فى التغنّى بالحب ، والتحدث عن الجمال ، وانى بذلك لمتهم ظنين !

ألا فلتعلم أن الناس يكثرون فى هذا العصر من التجنّى على الآداب العربية ، ويتهمونها بالفقر ، والعُقْم ، والجفاف ، والعجز عن مواتاة الغرائز ، والشهوات ، والعقول . وساعدهم على ترديد هذه النغمة المنكرة ما تقدمه الاداب الأجنبية كل يوم من الأدلة

والبراهين على صلاحيتها لتغذية المشاعر ، والعواطف ، والأحاسيس

وإن قليلاً من الانصاف لكافٍ للاقتناع بأن أدلة الاتهام قوية ، وأن الآداب العربية تبدو ضعيفة ضئيلة بجانب ذلك الدوىّ الهائل الذى تدمغنا به الآداب الغربية فى كل يوم . فهذه كتب المختارات والمحفوظات والدرس التى يتناولها طلبة المدارس الابتدائية والثانوية وبعض المدارس العالية تُعدُّ من الكتب الجافة المقفرة التي تخاطب على الأغلب ناحية واحدة من نواحى الطبع والادراك .

والطائفة المستنيرة من مفتشى اللغة العربية وأساتذتها تعلم ذلك حق العلم ، ولكنها تكتفى بالألم الصامت ترسله فى خفية واستحياء ، كلما رأت انصراف الطلبة عن آداب لغتهم وفناءهم فى آداب الفرنسيين والانجليز . وفى الحق أن المادة التى تقدم لطلبة المدارس فى اللغة والأدب لا تُمتع القلب ، ولا توقظُ الحس ، ولا تثير الوجدان ، فهى فى الأكثر طائفة من العظات والأوصاف تتحدث عن معانٍ موضعية طوتها الأيام ، وأتت على رسومها الليالى ، يدرسها جماعة يعيشون فى ظلمات القرون الأولى غير شاعرين بما أبدع العقل فى هذا الجيل ، إن لم يكونوا أمْساخاً خلّفها عصر ماقبل التاريخ

ولقد ثارت فى الصيف الماضى ضجة عن تقدُّم النثر وتخلّف الشعر

وكان من رأى أستاذنا الدكتور طه حسين أن النثر تقدم لأن الكتاب يحيون حياة عقلية ، وأن الشعر تأخر لأن الشعراء كسالى متبلّدون . وعندى أن النثر والشعر فى التأخر سواء ، ولا عبرة بهذه الثروة التى يطالعنا بها الكتاب فى كل صباح ، فهى على وفرتها تكريرٌ وترديدٌ لأفكار الفرنسيين والإنجليز والألمان ، وليس فيها شخصية ولا ذاتية تحدث القارىء عن حياة أولئك الكتاب . وإن شُعراء لأدلُّ من كُتابنا على أنفسهم ، فإنهم حين غفلوا عن أشعار الأمم الأجنبية فرغوا لعواطفهم فصاغوها خالصة من المحاكاة والتقليد بغضّ النظر عن متابعتهم لشعراء العرب فى المرمى والأسلوب

ولنغتنم هذه الفرصة لنعلن أنه لا حياة للآداب العربية مادام كتابها وشعراؤها وخطباؤها لا يرون المرأة فى حرية وصراحة ، ولا يتأثرون بجبروتها فى ميدان الحياة

وما دام شبابنا يسمعون عن المرأة كما يسمعون عن الغول والعنقاء لا يرونها حين يرونها إلا قَذِرة دنسة فى بيوت الرِّجس والبِغاء ، فهيهات أن تتفتّح أذهانهم ، أو تُزهر قرائحهم ، أو تظهر على آثارهم الأدبية مَسحة التيقظ والتفكير . وتلك الرءوس التى تتولّى هداية الشرق فى هذا العصر لا تدرى مع الأسف الشديد أن الصلة وثيقة بين

الأدب وبين الحياة ، إن لم يكن الأدب روح الحياة ، وأنه لا أمل فى أن نرى لكاتب قصة جيدة مادام الكتاب بعيدين كل البعد عن المرأة التى تلوّن الوجود بشتّى الألوان : فتُحيلُه تارةً جحيما يرمى بالفزَع والهول ، ثم تعيدهُ حين تشاء جنة وارفة الظلال . وكيف تكون لنا آداب قوية تمثل فضائلنا ورذائلنا ، وحلمنا وجهلنا ، وطيشنا ورزانتنا ، وعقلنا وجنوننا ، ونحن نحرص على الطيبة والاستقامة فى غير فهم ولا تبصُّر ، أُسوةً بغُلْف القلوب من سماسرة الاديان وأدعياء الأخلاق !!

إنه لاحياة للآداب إلا إذا شغلتنا بأنفسنا ، وحدثتنا عن مطامعنا ، وأهوائنا ، وعيوبنا ، ومظانّ الخير فينا ، وأرتْنا كيف نُحب وكيف نُبغض ، ومتى نُقْدِم ، ومتى نحجِم ، وعلّمتنا كيف نجدّ ، وكيف نلهو ، ومتى نقسو ، ومتى نلين . أما الأدب الذى يصدر عن رجل مشعوذ معتوه ، كلُّ إحساس فى رأيه إثم ، وكل إدراكٍ عنده فسوق ، فهو أدب ميت سخيف لا يقوى به عقل ، ولا يسمو به خيال

وإنى لأخشى إن استمر أساتذة الأدب على الاكتفاء بلون احد يقدمونه إلى الطلبة فى كل يوم : أخشى إن استمروا على ذلك ن يصارحهم الطلبة بالقطيعة والفراق !

* * *

وبعدُ فهل يسمح القارئ بأن نتجنب تلك الخطة العوجاء ، ونقبل على الأدب نتذوّق أطايبه ، ونعرف حُلوه ومُرّه ، وحُزونَهُ وسُهولَه ، كما كان يفعل القدماء من رجال اللغة العربية ، وكما يفعل أهل الغرب فى أدبهم الحديث ؟

إذا سمح القارئ بذلك شرعنا فى بيان تلك الناحية الطريفة من حياة عمر بن أبى ربيعة : وهى تصيُّده للنساء ، وأخبار من كان يعرف من المِلاح . ومعاذ الله أن نريد بهذا البحث أن تشيع الفاحشة ، أو تحلو فى أعين الناس مذاهب الفجور

إنما نريد أن نُقبل عامدين على الجوانب المرِحة التى تزخر بها الآداب العربية حتى لا يسهُل رميُها بالفقر والجفاف ، كلما حاولت هذه الفِرية خصومها الجاهلين

نريد أن يكون لنا فى دراسة الشعراء العشاق نصيبٌ ضئيلٌ من الحرية التي ينعم بها الكتاب الفرنسيون وهم يدرسون ميسيه ، والكُتّاب الانجليز وهم يدرسون بيرون ، والكتّاب الألمان وهم يدرسون جوت .

وإنا لمكتفون فى الحديث عن معشوقات عمر بن أبى ربيعة بما استباحه المؤلفون القدماء أمثال صاحب الأغاني ، وصاحب الامالى ،

وصاحب زهر الآداب ، ومن إليهم ممن ترجموا هذا الشاعر الغزل ، وتحدثوا عمن كان يهوى من ربات الحجال [1]

ولن يكون ذلك من اللهو الصِّرف ، فهو على طرافته رجدٌّ فى جد ، إذ يكشف لنا عن نفسية ذلك الشاعر ، ويُرينا الفتن التى أرهفت إحساسه ، وألهبتْ روحه ، حتى أُغرم بالحسن ، وحبس شعره على الحسان .

ولئن كان من موجبات الحزن أن انصرف كُتاب العرب عن تدوين الحوادث اليومية كما يفعل أصحاب المذكرات فى الغرب ، ولم يعد فى الإمكان تصوير معشوقات عمر بن أبى ربيعة كما صُوِّرت مثلاً خليلات ألفريد دى ميسه ، فانا نحمد الله على أن وفّق أبا الفرج الاصبهاني إلى الإفاضة في أخبار تلك الحور العين ، إفاضةً شائقة ممتعة ، لا ينقصها غير الترتيب والتبويب ، إذ ذكرها فى أغانيه مبدّدة مبعثرة فى أثناء الحديث عن كبار المغنين وفحول الشعراء

*
* *

(١) أهم مرجع لترجمة عمر بن أبى ربيعة وترجمة معشوقاته هو كتاب الاغانى ، وعليه عولنا في جمع أخباره مع أولئك الملاح. وكثيراً ما نكتفى بعبارته حين نراها وافية بما نريد ، فلنسجل ذلك هنا اعترافا بفضل ذلك المؤلف الذى قل نظيره بين القدماء المحدثين . وليتنا نظفر بكاتب مثله يدون أخبار الكتاب والشعراء في العصر الحديث

وقد يكون من الحزم أن نلفت نظر القارىء إلى أننا لا نضمن صحة كل ما نقل عن ابن أبي ربيعة ومعشوقاته من مختلف الأخبار. فتلك شخصيات جذابة محبوبة، لا يبعد أن يكون الرواة أضافوا اليها ما شاءت أهواء السامرين من طريف الاحاديث .

فلنقبل ما نُقل الينا في جملته، مكتفين بهذه الملاحظة التي لم يكن منها بُدّ ، ولنترك للقارىء الحرية في أن يناقش ما شاء من تلك الاقاصيص ، ثم لنمض في الكلام عن أولئك الحسان ، راضين بما حكاه الواقع ، أو حاكه الخيال